محاصرة الاستيطان في القدس وحولها

أ د عبد الستار قاسم

محاصرة الاستيطان في القدس وحولها عبارة عن بحث جيو–سياسي–سكاني يبحث في التوازن السكاني في القدس وحولها، وفي استغلال العناصر الجغرافية والتجمعات السكانية القائمة من أجل تعزيز التواجد العربي. إنه يؤسس لاستراتيجية فلسطينية للتأثير على الاستيطان في القدس وحولها بهدف الحد من انتشاره أو السيطرة على تمدده، وجعل حياة المستوطنين أقل اطمئنانا من ناحية الأعداد السكانية. البحث يتعلق بالمستوى الاستراتيجي الهادئ والذي لا يتعلق بأنماط المقاومة كما هي معرفة سياسيا وعسكريا.

البحث مهم لأنه يعالج مسألة حيوية تتعلق بالحقوق الفلسطينية في المدينة المقدسة، وفي المقدسات التي تتجاوز أهميتها الشعب الفلسطيني لتشمل العرب والمسلمين (كلمة عرب تشمل المسيحيين والمسلمين). إسرائيل تتمدد في القدس بشكل غير متوازن مع التمدد العربي، وتزحف تدريجيا على هويتها العربية، وعلى معالمها التاريخية والثقافية والحضارية، وقد حققت إنجازات كبيرة في هذا المجال. القدس عبارة عن محور أساسي من محاور الحقوق الفلسطينيين قيد البحث في العديد من المحافل والمناسبات الدولية.

تحظى مدينة القدس باهتمام دولي على المستويين السياسي والثقافي. سياسيا، تعتبر القدس قضية حيوية بالنسبة للفلسطينيين والإسرائيليين، وإذا كان للمجتمع الدولي أن يساهم بإقامة سلام في المنطقة العربية فإنه لا يستطيع ذلك دون أن يجد حلا للمدينة. وعلى المستوى الثقافي، تهوي إلى القدس مئات ملايين القلوب من ديانات مختلفة، وتهوي إليها اهتمامات ملايين السائحين الذين يريدون التعرف على المدينة. تزخر المدينة بالتراث الثقافي لأمم وحضارات كثيرة تعاقبت عليها، وكل حجر فيها له تاريخ ورواية. وإذا كان لنا أن نحصي المنشورات التي يتم إصدارها عن مدن وأهميتها، فأظن أن القدس ستأخذ المرتبة الأولى.

إذا كان للعرب والمسلمين عموما وللفلسطينيين خاصة أن يستعيدوا حقوقهم في المدينة وبها، فإن عليهم التخطيط الإستراتيجي والتنفيذ. تملك إسرائيل الخطط الاستراتيجية وتعمل على تنفيذها، وهذا أحد عوامل نجاحها في فرش مظلتها على المدينة، أما، حسب معرفتي، لم يتم وضع خطة من الطرف المقابل. أعالج في هذه الورقة زاوية واحدة من خطة استراتيجية متكاملة يمكن وضعها وهي زاوية محاصرة الاستيطان.

فرضية البحث

تقول فرضية البحث بأنه إذا عمل الفلسطينيون على تنشيط الحركة العمرانية داخل القدس وفي المحاور السكانية والجغرافية المحيطة بالقدس فإنهم يستطيعون التأثير سلبا على قدرة إسرائيل على استقطاب مستوطنين، وعلى قدرتها على تهويد المدينة. بإمكان الفلسطينيين تكثيف البناء العمراني في القدس ومحيطها وزيادة عدد السكان الفلسطينيين إلى درجة تطويق الاستيطان اليهودي ودفع اليهود إلى التراجع عنه أو تقليصه.

منهجية البحث

البحث جيو-سياسي-سكاني، ولذلك يعتمد الوصف الجغرافي للتمدد العمراني في القدس وحولها بشقيه العربي واليهودي، ويستند على ما هو معلن من الإحصاء السكاني. وفق الدراسة الجغرافية-السكانية يتم النظر تحليليا بما يمكن التخطيط له فلسطينيا وعربيا نحو محاصرة الاستيطان اليهودي.

محاور النقاش

يفحص البحث عددا من الخيارات أمام الفلسطينيين فيما يتعلق بالتركيز السكاني والعمراني مثل:

أ- الخيار الأخلاقي الذي يعتبر الدعامة الاستراتيجية الأولى لنهوض أي دولة أو مجتمع أو حضارة. هذا لأن عملية مواجهة الاستيطان تحتاج إلى قوة نابعة من الداخل أولا. وهنا يلمس البحث على سياسة البكاء والعويل ونتائجها الوخيمة على مستقبل القدس.

ب-المحاور السكانية والتي تتلخص في محور قلب المدينة، ومحاور اللطرون وعصيون ومخماس وكفر عقب.

ت- المحور الاقتصادي الذي يعتبر هاما في استقطاب السكان الفلسطينيين إلى مناطق جغرافية مهجورة إلى حد ما.

ث- محور السكان الفلسطينيين في الأرض المحتلة/48 وتشجيعهم على السكن في القدس واللد والرملة.

ج- المحور العربي الإسلامي الذي يعتبر ظهيرا يمكن الاعتماد عليه جزئيا.

ح- محور سكان القدس المهاجرين الذين أخلوا بهجرتهم بالتوازن السكاني لصالح اليهود.

أرضية البحث

يصر اليهود الإسرائيليون على أن مدينة القدس بشقيها الشرقي والغربي هي عاصمة إسرائيل الأبدية، وهم يفعلون الكثير من أجل ترسيخ هذا الإصرار وتثبيته. عملت إسرائيل، والحركة الصهيونية قبل الدولة على القيام بخطوات وإجراءات عديدة نحو صنع واقع يحول المدينة إلى مدينة يهودية. ركز اليهود على المدينة قبل بدء الهجرات اليهودية إلى فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر واستوطنوا فيها، وزاد هذا التركيز مع ظهور حركة أحباء صهيون والحركة الصهيونية. استطاع اليهود أن يكونوا أغلبية في القدس بشقيها قبل عام 1948.

نشطت الحكومة الإسرائيلية بعد حرب حزيران/ 1967 في توحيد مدينة القدس عمليا، واتخذت الإجراءات المتعددة لمحاصرة السكان العرب في المدينة شرق. أقامت المستوطنات وزادت من أعداد المستوطنين، ومحاولاتها ما تزال مستمرة حتى الآن. ويمتد النشاط الإسرائيلي خارج المدينة حيث أقيمت أحزمة استيطانية حول المدينة من شأنها عزل المدينة عن محيطها الفلسطيني العام والتمهيد لتوسيع حدود بلدية المدينة ضمن معادلة سكانية تميل لصالح اليهود.

لم تكن السياسات والإجراءات الإسرائيلية كلها ناجحة تماما، وإنما أخفقت في بعض النواحي مثل إخلاء السكان الفلسطينيين من البلدة القديمة والاستيلاء على المسجد الأقصى. لكنها بصورة عامة حققت نجاحا مقابل الكثير من التصريحات العربية والفلسطينية. قام الجانب الفلسطيني بدعم عربي ببعض مشاريع الإسكان لمواجهة الإسكان اليهودي، وتم توجيه الدعم المالي المحدود لعائلات

مقدسية بخاصة تلك التي تسكن داخل البلدة القديمة والتي تتعرض باستمرار للضغط اليهودي والإغراء المادي من أجل التخلي عن عقاراتها. وقد عمل الجانب الفلسطيني أيضا على إقامة العديد من المؤسسات العامة في الشطر الشرقي بهدف تثبيت المدينة كمرجعية سياسية وإدارية، وبهدف المحافظة على طابعها الفلسطيني وصنع أمر واقع يعزز الموقف الفلسطيني.

لم تؤد مجمل الإجراءات الفلسطينية إلى نجاح فلسطيني لأنها لم تكن كافية. فهي لم تتلق الدعم العربي اللازم، ولم تحظ باهتمام جدي من قبل القيادة الفلسطينية التي افتقرت لوجود استراتيجية عملية تبتعد عن النفخ الإعلامي. ركزت القيادة على إنشاء مؤسسات كانت هدفا سهلا للإجراءات الإسرائيلية، ولم ينتج عنها سوى بعض الحرج الإعلامي الآني لإسرائيل.

أقدم في هذه الورقة رؤية جيو–سكانية–سياسية لما يجب عمله نحو محاصرة الاستيطان الإسرائيلي في مدينة القدس ومحيطها. ماذا بإمكاننا أن نعمل من أجل تطويق الاستيطان الصهيوني الذي يتمدد باستمرار من الناحيتين الجغرافية والسكانية؟ وكيف بهذا التطويق نستطيع تعزيز مواقفنا السياسية؟ نستطيع بالتأكيد أن نعمل شيئا، لكن الأمور ليست يسيرة ولا الحلول سهلة. إنها تتطلب منا الجهد والعرق والدم والسهر والإنفاق.

إحصائيات

فيما يلي إحصائيات حول السكان العرب واليهود في القدس بشطريها، وفي محيط القدس شرق، وذلك من أجل وضع القارئ في صورة المعادلة السكانية القائمة حاليا.

المستوطنات في القدس شرق وسكانها (بالآلاف)

رامات إشكول	9474
رامات شلومو	11348
تل بيوت الشرقية	12845
عطاروت	منطقة صناعية
راموت ألون	37934
النبي يعقوب	20288
بيزغات زئيف	36469
جيفعات شابيرا (الفرنسية)	
وجبل سكوبس	8193
جيلو	27637
جيفعات هاماتوس	763
هار حوما (أبو غنيم)	600
* المجموع	165551

* المصدر: كتاب القدس الإحصائي السنوي، عدد 19، 2001–2002.

المستوطنات حول مدينة القدس وسكانها بالآلاف

ألون	1100
جيفعات بنيامين	1020
جيفعون هحداشا	1190
جيفعات زئيف	10300
جيفعون	1190
ألمون	698
كاليا	260
كيدار	474
كفار أدوميم	1690
ميشور أدوميم	منطقة صناعية
معاليه أدوميم	24900
هار أدار	1420
كوخاف يعقوب	1640
هار شموئيل	فارغة
آلموغ	167
** المجموع	44434

** المصدر: حركة السلام الآن، 2002

يبلغ سكان القدس وفق إحصائية 2001، 670000 نسمة. منهم 215400 عربا، و454600 يهودا. يسكن القدس شرق 215400 من العرب و 165551 من اليهود. أي أن سكان القدس غرب وهم من اليهود يبلغون حوالي 290000 نسمة.

يبلغ عدد سكان منطقة القدس العرب (المقاطعة) 373713 نسمة. أي أن سكان المنطقة المحيطة بمحيط بلدية القدس من العرب يبلغ 128313 نسمة. (جزئيا مركز الإحصاء الفلسطيني) هناك اختلاف بين الإحصاء الإسرائيلي والإحصاء الفلسطيني بمقدار حوالي 13000 نسمة.

سكان القرى بالآلاف في محيط مقاطعة القدس وخارج حدود البلدية

المنطقة الشرقية:

عناتا	6900
حزما	4000
جبع	1500
مخماس	1900

المنطقة الوسطى:

أبو ديس	11900
الزعيّم	2500
الرام	29700
الجيب	3000
النبي صموئيل	150
بير نبالا	3000
الجديرة	1300
كفر عقب	4400
قلنديا	6800
رافات	900

المنطقة الشمالية الغربية:

القبيبة	1500
بيت عنان	4400
بيت دقو	1000
بيت إجزا	600
بيت إكسا	1000
بيت سوريك	2500
بدو	4000
قطنّة	4400
خربة أم اللحم	150

المنطقة الجنوبية الشرقية:

السواحرة الشرقية	9900
بدو القدس	2000

*** مجموع السكان 122300

*** المصدر: Rassem Khamaisi and Rami Nasrallah, Jerusalem Urban Fabric, P 140.

هذه إحصائية عام 1995، وقد تغيرت الأرقام بحيث بلغت حوالي 133000 عام 2003.

النداءات الدولية

منذ عام 1967 والعرب يناشدون المجتمع الدولي العمل على وقف نشاطات إسرائيل الهادفة إلى تهويد المدينة المقدسة. نشط العرب عموما والفلسطينيون خاصة على الساحة الدولية من أجل

إفهام العالم بأن الذي تقوم به إسرائيل من أعمال مثل بناء المستوطنات وتغيير المعالم الحضارية للمدينة غير شرعي من ناحية القانون الدولي، ويجب ممارسة الضغط عليها لكي تحترم ما يعرف بالشرعية الدولية. استطاع العرب استصدار قرارات من الجمعية العامة للأمم المتحدة مثل القرارين 2253 و 2254 تصف أعمال إسرائيل بأنها غير شرعية، وتدعوها إلى وقف نشاطاتها. وكذلك فعلوا في مختلف المحافل الدولية والمؤتمرات العالمية والإقليمية. وقد أقام العرب لجنة باسم لجنة القدس برئاسة ملك المغرب من أجل المتابعة المستمرة لما تقوم به إسرائيل والحيلولة دون تهويد المدينة.

كل النشاطات العربية لم تمنع إسرائيل من توحيد المدينة ولا من ضمها قانونيا عام 1981. إسرائيل تستمر في بناء المستوطنات غير عابئة بالنداءات الدولية وقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة. وهي لم تستمع حتى في أكبر قصة استيطانية أخذت صدى دوليا وهي مستوطنة جبل أبو غنيم (التي يسميها اليهود هار حوما). هددت السلطة الفلسطينية في حينه بالتوقف عن المفاوضات إذا استمرت إسرائيل في أعمال الحفر والبناء، لكن الاستيطان استمر، واستمرت المفاوضات.

لم تثمر النداءات الدولية، ولم ينجح العرب في وقف الاستيطان. الزحف اليهودي على المدينة المقدسة ومحيطها مستمر مع الزمن ويصنع واقعا صعبا من الناحيتين الجغرافية والسكانية. تستمر إسرائيل في فرض الأمر الواقع، ويستمر العرب والفلسطينيون في البكاء والعويل. هذا يحقق إنجازات، وذاك يحصد إحباطات. كان من الأولى بالعرب أن يفكروا في خوض صراع الأمر الواقع بدل الوقوف على أبواب الأمم المتحدة باحثين عن حلول في جعب الغير.

تصف هذه الورقة بعض الخطوات العملية التي يمكن أن يتبعها العرب وبالذات الفلسطينيون نحو إنقاذ القدس أو الحفاظ عليها، أو إقامة نوع من السياج الواقي ضد التمدد السكاني والجغرافي اليهودي في المدينة ومحيطها. هذا لا يمنع النشاط على الساحة الدولية، لكنه يشكل الخطوات العملية التي تصنع واقعا في مقابل واقع آخر.

محاور العمل الفلسطيني

هناك عدد من المحاور التي يمكن للعمل الفلسطيني أن يعمل ضمنها لمحاصرة أو تطويق الاستيطان الصهيوني في مدينة القدس وحولها. لا يمكن أن يتم العمل بسهولة، لكن السير على الطريق لا بد أن يُنتج في النهاية. أضع هذه المحاور بالتالي:

أولا: المحور الأخلاقي. في حياة الإنسان، هناك أخلاق في التعامل اليومي، وهناك أخلاق تسمى أخلاق الأزمة، وأخرى أخلاق التحدي، وثالثة أخلاق الإنجاز، الخ. تتطلب كل حالة أخلاقيات تناسبها وذلك من أجل ترشيد الخطوات العملية نحو الوصول إلى حل. نحن في فلسطين نواجه تحديا تارخيا وكبيرا جدا يفرض علينا أثقالا هائلة ومتطلبات ضخمة. العدو يحتل أرضنا ويشرد أبناءنا ويقتل أطفالنا ويهدم بيوتنا، وحتى يكون بمقدورنا مواجهته فإن علينا في تركيبنا التربوي والنفسي والذهني أن نكون أهلا لذلك، وإلا نبقى ندور في دائرة من الخسران.

أخلاق التحدي تعني وجود مجتمع متكافل متضامن يؤمن بالعمل الجماعي والتعاون المتبادل، ويربي أبناءه على الصدق والتضحية والوفاء والإيثار وحمل الأمانة. أخلاق التحدي هي أخلاق العمل الدءوب الذي يقوم على أسس علمية بعيدا عن الارتجال والشخصنة والفهلوة، وهي السواعد المشمرة والعيون الساهرة والعقيدة الصلبة والإيمان بالهدف ووحدة المصير. أخلاق التحدي ترفض الأنانية والاستئثار والوساطات والمحسوبيات والرشوة والسرقة والنفاق، وهي تحارب كل ما من شأنه تمزيق المجتمع ونزع الثقة فيما بين الناس.

الأمم تهزم أولا بأخلاقها، ذلك لأن الأمة التي تتميز بأخلاق منحطة تكون مفتتة وضعيفة ولا ثقة بين أبنائها، وتعلو فيها المصلحة الشخصية على العامة، وينهش قويها ضعيفها، ويبتز ثريها فقيرها، و**لا** تتراحم فئاتها. الأمة التي تفتقر إلى الأخلاق تفتقر إلى القوة وتتحول إلى أفراد متصارعين يسهل امتطاؤهم والسيطرة عليهم. يشهد التاريخ أن الأمم تهزم أولا بانحطاطها الأخلاقي، أما الأمم ذات الأخلاق الملتزمة بصالح الأمة فإنها تبقى صلبة وعصية على الغزاة، وتستطيع النهوض بسرعة حتى لو تعرضت لغزو من قبل عدو يتمتع بقوة عسكرية متفوقة.

إذا أردنا أن نحقق إنجازا في محاصرة الاستيطان في القدس وحولها، فتطوير أخلاقيات التحدي عبارة عن متطلب لا مفر منه، وإلا فإن جهودنا ستذهب سدى وسيستمر عدونا في الاستيلاء على الأرض وتشييد البيوت وزرع السكان. إذا رأينا أن أخلاق التحدي لا تناسبنا وأن ما نحن عليه من أخلاق يسد الرمق فإنه من الأفضل أن نستمر في استصدار قرارات لا تسمن ولا تغني من جوع من الجمعية العامة للأمم المتحدة.

المحور السكاني

يمكن دعم التواجد السكاني العربي في القدس ومحيطها من خلال الأمور التالية:

أولا: الشطيرة السكانية الطبقية

انتهج اليهود سياسة الأطواق من أجل تهويد القدس ومحاصرتها بطوق استيطاني خارجي واسع شبه دائري، ويتحاشى مدينتي البيرة ورام الله ويصل تقريبا إلى جوار البحر الميت، ويضم مجمع عصيون من ناحية الجنوب الغرب متجاوزا بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور. وحيث أن المدن والقرى العربية قائمة الآن داخل محيط مدينة القدس المصادق عليها إسرائيليا والتي تبلغ مساحتها 126 كم2، وكذلك خارج هذا المحيط، فإنه بإمكاننا دعم هذا التواجد السكاني من خلال سياسة الشطيرة الطبقية: أي من خلال ضخ سكان فلسطينيين إلى القرى والمدن القائمة بحيث تتم المحافظة على أغلبية عربية تفسد على اليهود مخططاتهم. أرى أنه من الممكن التركيز في عملية الضخ على المفاصل التالية:

1- مفصل المدينة ذاتها وتشمل مختلف الأحياء مثل الزعيّم والثوري والمكبر، والقرى التي ضمت إليها مثل صور باهر وأم طوبى وسلوان؛
2- المفصل الشرقي ويشمل أبو ديس والعيزرية والسواحرة الشرقية وعرب السواحرة وعرب أبو نصير وعرب الحتميات والخان الأحمر والعبيدية؛

3- مفصل أريحا والذي يشمل المخيمات والنبي موسى. هذا مفصل يشكل دعما سكانيا استراتيجيا للمفصل الشرقي من حيث أنه يضع الاستيطان اليهودي في شطيرة يحاصرها التواجد العربي من الغرب ومن الشرق؛

4- المفصل الجنوبي والجنوبي الغربي. يشمل هذا الشيخة وأم عملة وأم الطلع وبيت جالا وبيت ساحور والولجة وحوسان والخضر ووادي فوكين. من الممكن التركيز على هذا المفصل ليحاصر منطقة عصيون. من المفروض دعم زعترة وعرب التعامرة وكيسان وخربة المنية وأرطاس ونحالين والجبعة وصوريف. هذا مفصل يعزل عصيون عن القدس، ويؤثر جديا على حركة المستوطنين ناحية الغرب باتجاه الأرض المحتلة عام 1948.

5- المفصل الشمالي والشمالي الغربي. يشمل هذا حزما وجبع ومخماس والرام وضاحية البريد وقلنديا وكفر عقب ورافات والجديرة وبير نبالا والجيب والنبي صموئيل وبيت إكسا وبيت سوريك.

6- مفصل اللطرون. يشمل هذا القرى المحيطة بمنطقة اللطرون والتي نهبها الاستيطان. يشمل هذا بيت لقيا وخربة المصباح وبيت سيرا وصفا وبيت عور الفوقا والتحتا وبيت دقو وبيت عنان والقبيبة وقطنة وبدو.

7- مفصل اللد والرملة.

(تفحص الخرائط المرفقة والتي توضح القدس ومحيطها من جهات الشمال والشرق والجنوب)
وانظر الخرائط في .Khamaisi, pp xxii-xxv

من المفروض التركيز على النمو السكاني الفلسطيني في هذه المفاصل وذلك من خلال تقديم البرامج والخطوات التالي:

أ- إقامة مؤسسات فلسطينية عامة في هذه المفاصل، وبدل التركيز على البيرة ورام الله وبيت لحم والرام، من المهم التركيز على القرى والضياع وتسهيل سكن الموظفين فيها. من شأن هذا أن يحسن أوضاع القرى من ناحية الخدمات مما يجعلها أكثر قدرة على استقطاب السكان من مناطق مزدحمة. من الضروري ألا ننساق وراء التوسع العمراني العمودي الذي تشهده المدن الرئيسية الآن، وعلينا التوجه نحو التوسع العمراني الأفقي الذي يمتد بالتحديد فوق أراض وعرة غير صالحة للزراعة. إنه من المهم أيضا التركيز على العمران الأفقي وليس العمودي. الانتشار الأفقي يمتد على الأرض ويعرقل كثيرا من قدرة إسرائيل على التوسع، ويردع المستوطنين عن التواجد في أماكن ينتشر فيها العرب. أثر البناء العمودي الذي يتم بخاصة في نابلس ورام الله والبيرة سلبيا على انتشار الفلسطينيين جغرافيا. علما أن هذا سيخفف من الضغط على المدن ومن المشاكل التي تواجهها نظرا لزيادة السكان بطريقة تفوق طاقاتها الاستيعابية.

ب- إقامة مصالح اقتصادية في القرى المختلفة مثل المعامل والمصانع، وتشجيع استصلاح الأراضي. الناس يتبعون مصدر الرزق، وهذا يجب أن يكون جزءا من تخطيطنا العام. يتطلب هذا تقديم الدعم الاقتصادي، ولعلنا نستطيع القيام بذلك من خلال إدارة أفضل للأموال.

ت- تشجيع الفلسطينيين من داخل فلسطين المحتلة/48 على السكن في القدس. هذا يعني توفير برامج اقتصادية لدعم سكان القدس والوافدين إليها من العرب.

ث- السعي لدى الفلسطينيين الذين هجروا القدس ورام الله وبيت لحم إلى دول أخرى مثل الولايات المتحدة للعودة إلى فلسطيني. هذه مهمة صعبة، لكن من المفروض توفير برامج توعية وطنية يمكن أن تحدث توازنا بين المصالح العامة والخاصة.

ج- هناك إمكانية للدخول في المجتمع الفلسطيني في اللد والرملة، ومن الممكن تشجيعهم بوسائل مختلفة على البناء والتكاثر.

إذا قمنا بذلك فإننا سنضع اليهود ضمن شطائر. وسيصبح المكون السكاني الجغرافي عبارة عن طبقة تلي أخرى. هناك يهود ثم عرب ثم يهود ثم عرب. هكذا نضمن على الأقل تواجدنا في مختلف المناطق الجغرافية ونحرم اليهود من الهيمنة على منطقة جغرافية معينة، ونحيل حياتهم إلى مشقة. بالطبع ستبقى حياتنا صعبة، لكن المحافظة على الوطن تقتضي التضحيات.

محور مدينة القدس ذاتها

حاول اليهود عبر السنوات ربط سكان الشطر الشرقي من القدس بالسياسة الإسرائيلية من خلال ربط مصالحهم الاقتصادية بإسرائيل. وقد لاحظنا أن عددا غير قليل من سكان المدينة قد طاب له هذا الربط وفضل بعضهم الهوية الإسرائيلية على الفلسطينية. هذا وقد استسلم كثيرون للسياسات الإسرائيلية على اعتبار أنها واقع لا مفر منه، وأنه ليس بمقدورنا تغييره. ربما لهذا السبب لم نعمل على تطوير برامج اقتصادية تربط سكان المدينة بالوضع الفلسطيني العام، ووصل بنا الأمر إلى استثناء مدينة القدس عند مناقشة برامج اقتصادية وطنية.

من الحكمة أن نراجع أنفسنا بهذا الصدد وأن نعمل على تطوير حياة اقتصادية واجتماعية متميزة في القدس شرق لكي نحقق مزيدا من الربط بين المواطن وفلسطينيته. لا بد من الإشارة هنا أنه ليس كل سكان القدس قد انجرفوا وراء إجراءات إسرائيل، لكن المشكلة ماثلة أمامنا بقوة.

من ناحية أخرى، لا يكفي أن تكون القدس مفرخة زعماء، وإنما يجب أن تكون موئل المناضلين من أجل الحرية والتحرير. صحيح أن القدس قدمت تضحيات كثيرة واستشهد العديد من أبنائها واعتقل كثر آخرون، لكن السمة التاريخية الغالبة عليها هي حوار الأعداء وتقديم التنازلات. إذا قسنا تضحيات القدس في مواجهة الاحتلال مع محيطها القروي أو مع محافظات الوطن الأخرى نجد أنها متواضعة جدا.

الانخراط في العمل الوطني هام جدا من أجل أن يشعر الطرف الآخر أنه ليس في مأمن، وأن جهوده الاستيطانية ستجد من يعرقلها أو يهدد أمن ساكنيها. يعيش مستوطنو القدس وما حولها هدوءا، وكثيرا من الأمن مقارنة مع سكان مستوطنات أخرى منتشرة في أماكن شتى. النضال الوطني المقدسي ليس ناضجا بعد، ولا يبدو أن الفلسطينيين يحملون خطة أو استراتيجية لمواجهة الاعتداءات الصهيونية المتكررة.

رام الله والبيرة وبيتونيا والرام

من سوء التخطيط الفلسطيني هو تركيز السكان في مدن البيرة ورام الله وبيتونيا والرام. هذه مدن صغيرة نسبيا وغير مهيأة من الناحية البنيوية لثورة سكانية، وقدرتها الاستيعابية ضعيفة سواء من

ناحية الخدمات أو الأشغال والأعمال الإنتاجية. أقامت السلطة الفلسطينية أغلب مؤسساتها في هذه المدن بدون تخطيط أو تدبير، وحولتها إلى تجمعات مزدحمة بالناس والمركبات.

كان تركيز السلطة الفلسطينية على مدن رام الله والبيرة عملا غير موفق من ناحية التخطيط السكاني والإنتاج والمحافظة على الأبعاد الوطنية للقضية الفلسطينية. فضلا عن الازدحام، أخذت تلبس هذه المدن وبالتحديد رام الله ثوب التغريب والانفصال عن المجتمع الفلسطيني. إنها تضم العديد من الليبراليين الغربيين الذين يتجهون نحو التطبيع مع إسرائيل، وكذلك العديد من المؤسسات غير الحكومية الممولة غربيا، والتي ينخر بعضها في الجسد الفلسطيني. هذا فضلا عن تطور جو استهلاكي فيها مختلف عن الأجواء الاستهلاكية في الضفة الغربية والقطاع.

حتى يتم دعم الجهود نحو محاصرة الاستيطان اليهودي، من الضروري نقل مؤسسات السلطة الفلسطينية بما فيها الوزارات إلى القرى والضياع المشار إليها في المحاور السكانية أعلاه. هذه المؤسسات كفيلة ببعث الحياة في هذه التجمعات السكانية وزيادة عدد سكانها بصورة متسارعة.

أما الرام فتضخمت بصورة كبيرة وفاضت بالسكان. جبع ورافات قريتان صغيرتان تقعان بالقرب من الرام، ولا تجدان سكانا يرحلون إليها. كان من الممكن ببعض بعد النظر والتخطيط العقلاني ألا ندع الرام تنمو لتتحول إلى ما يشبه الجيتو (الحارة المزدحمة)، وألا نترك قرى مجاورة عرضة للخراب.

الخلاصة

تجربتنا تقول أن كل نشاطنا على الساحة الدولية من أجل الحفاظ على القدس باءت بالفشل، وأن كل الجهود إما أنها كانت مضيعة أو تسلية. استمرت إسرائيل في جهودها نحو فرض أمر واقع، وكثيرون من العرب والمسلمين وجدوا عبر السنوات أن عليهم أن يكونوا "عقلانيين" ويقبلوا بالأمر الواقع.

نحن لا نملك القدرة على إلحاق هزيمة عسكرية بإسرائيل الآن وإجبارها على الخروج من القدس، لكننا نملك قدرات تمكننا من تعزيز وجودنا في القس ومحيطها والتأثير سلبيا على خطوات إسرائيل نحو تهويد المدينة. نحن بحاجة إلى إرادة وعزيمة، وإلى حرص على حمل الأمانة. من الممكن تعزيز الوضع السكاني في الكثير من أحياء القدس والقرى المحيطة بها من خلال برامج اقتصادية واجتماعية وتثقيفية تشكل عوامل جذب للسكان.

المراجع

حركة السلام الآن، نشرة حول القدس، 2002.
كتاب القدس الإحصائي السنوي، عدد 19، 2001–2002.
Statistical yearbook of Jerusalem, No. 19-2001-2002
Rassem Khamaisi and Rami Nasrallah, Jerusalem Urban Fabric, P 140.